﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدُّخان: 47 - 50]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

يُحمَلُ الآثمون على الحميم، ويُساقون سَوقًا إلى مهاوي الجحيم

لمّا أخبر سبحانه ما يُقاسيه المُعاندون المكذِّبون من العذاب؛ حيث الزَّقّوم والحميمُ والجحيم؛ كأنَّه قيل: ما لِلأثيم يأكلُ هذا الطَّعامَ؟ وما الحامِلُ له عليه وعلى مقاربة مكانه؟ أُجيبَ بأنَّه مقهورٌ عليه، ومحمولٌ على فِعْلِ ذلك حملًا؛ زيادةً في الهوان، ولمّا أفهَمَ هذا أنَّهُ صار في موضعٍ يُحيط به العذابُ فيه مِن جميع الجوانب؛ بيَّن أنَّ له نوعًا آخرَ من النَّكد رتبتُه في العظمَةِ ممّا يستحقُّ العطفَ بأداة التَّراخي؛ وهو العذاب الذي يَغْلي به الحميمُ أو الذي هو الحميمُ نفسُه، والتَّعبيرُ عنه بالعذاب أهوَل، وهذا في مقابلةِ ما كانَ لَهُم مِنَ البركة بِما ينزل[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾: (عتل) تدلُّ تصريفاتُها على شِدَّةٍ وقوَّة في الشَّيء[2]، والعَتْل: الأخذُ بمَجامع الشَّيء وتلابيب الرَّجل، فتعتِلهُ وتجرُّهُ إليك وتذهب به بقهْر، كعَتْلِ البعير، عَتَلْتُ الرَّجلَ أعتِلُه وأعتُلُه؛ إذا جذبتهُ جذبًا عنيفًا، والعُتُلُّ: الغليظُ الجافي[3]. ومعنى: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾؛ أي: خذوه فادْفَعوه واقْصِفوه كما يُقصَف الحَطَب، واحملوهُ بعنفٍ، وسوقوهُ سَوْقًا شديدًا[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 45/ 18، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 211.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (عتل).
(4) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 236، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 150.

2) ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾: (سوي) تدور اشتقاقاتُها على استقامةٍ واعتدالٍ بين شيئين[1]، ومِنْهُ السَّواء؛ وهو العَدْلُ، وسواء وسِوى وسوى؛ أي: يستوي طرفاه، ومكان سوى وسواء: وسط، وسواء الشَّيء: وسطه؛ لاستواء المسافة إليه من الأطراف[2]، ومعنى: ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: وسط الجحيم[3].

3) ﴿صُبُّواْ﴾: (صبّ) تدلُّ تصريفاتُها على إراقةِ الشَّيء[4]، يُقال: صبَبتُ الماءَ صَبًّا فانصَبَّ؛ أي: سكبتُه بسرعةٍ وكثرةٍ، فانْسَكَب، فصَبُّ الماء: إراقَتُه مِن أعلى، يقال: صبَّه فانصبَّ، وصببتُه فتصبَّب، والماءُ يتصبَّب من الجبل؛ أي: يتحدَّر[5]، والصَّبَب: تصوُّب نهرٍ أو طريقٍ يكون في حُدور، ويقال: ماءٌ صَبٌّ؛ وهو كقولك ماءٌ سَكْبٌ، وماءٌ غَوْرٌ[6]، والصَّبُّ: إفراغُ الشَّيء المظروف من الظَّرف، والصَّبُّ هنا مُستعارٌ للتَّقوية والإسراع؛ لأنَّ العذابَ أمرٌ معنويٌّ، فلا يتعدَّى الصَّبُّ إليه[7].

4) ﴿ذُقۡ﴾: (ذوق) تدورُ اشتقاقاتُها على اختبارِ الشَّيء من جهةِ تَطَعُّم[8]، والذَّوق: وجود الطَّعم بالفَم، وأصلهُ فيما يَقِلُّ تَناولُه دون ما يكثُر؛ فإنَّ ما يكثر منهُ يُقال له: أكل، ويُقال: ذُقْتُ الشَّيءَ أذوقُه ذَوقًا وذَواقًا ومذاقًا ومذاقَةً، وتَذَوَّقتُ الشَّيء؛ أي: ذُقْتُه شيئًا بعدَ شيء، وأمرٌ مُسْتَذاق؛ أي: مجرَّب معلوم، وما نَزَلَ بإنسانٍ من مكروهٍ فَقَدْ ذاقَهُ، واختير لفظُ الذَّوق في القرآن لمعنى العذاب؛ لأنَّ ذلك – وإنْ كان في التَّعارف للقليل – فهو مستصلَح للكثير، فخصَّهُ بالذِّكر ليعمَّ الأمرَين، وكثُرَ استعمالُه في العذاب والمكروه ونحوِ ذلك[9]، ومنه قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾، ويُعَبَّر به عنِ الاختبار، فيُقال: أذقتُه كذا فَذاقَ، ويُقال: فلانٌ ذاقَ كذا، وذاقَ فلانًا؛ أي: خبَرَهُ، واسْتَذَقْتُ فلانًا؛ إذا خبرْتَه فلم تَحْمَد مَخْبَرَته[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوى).
(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 236، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبب).
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صبب).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (صبب).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(9) الراغب، المفردات: (ذوق).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).

5) ﴿تَمْتَرُونَ﴾: (مري) تدلُّ تصريفاتُها على مسحِ شيءٍ واستدرار[1]، ويتفرَّع عنه معنى الجدال؛ لأنَّ الجدال يستخرج الرَّجلُ فيه مِن مُناظِرِه كلامًا ومعانيَ الخصومة وغيرَها، مِن قولكَ: مَرَيْتُ النّاقة؛ إذا مَسَحْتَ ضرعَها للحَلب لِيَدرَّ، واستخرجتَ لبنَها، ومنه أمْرَتِ النّاقَةُ؛ أي: درَّ لبنُها، والمِرْية: الشَّكُّ؛ وهو التَّردُّد في الأمر، ومنه: الامتراءُ والتَّماري في القرآن، يُقال: تمارَى يتمارَى تماريًا، ومارَى مماراةً ومِراءً وامترى امتراءً؛ إذا شكَّ، والامتراءُ والمُماراة: المُحاجَّة فيما فيه مِرية، ومارَيْتُ الرَّجل أُماريه مراءً؛ إذا جادلته وخالفته، ومَراه حقَّه؛ أي: جحدَه[2].

ومعنى: ﴿تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تشكّون فيه ولا تؤمنون[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ جزاء الكافر الأثيم

في هذا السِّياق القرآنيِّ بيانٌ لحال الكافر بربِّه، وما سيلقاهُ يومَ القيامة من العذاب الأليم؛ حيث يُقال للملائكة الَّذين هم خزَنةُ النّار: خُذوا هذا الكافر الأثيم بربِّه فادفَعوهُ إلى وسط النّار بعنفٍ وغِلظة، ثمَّ صُبّوا على رأسه من الماء الشَّديد الحرارةِ - زيادةً في تعذيبه وإيلامه - قائلينَ له على سبيلِ التَّهكُّم والسُّخرية: ذُقْ هذا العذابَ الَّذي تُعذَّبُ به اليوم، فقد كنتَ عزيزًا في قومك، كريمًا في حسَبكَ؛ إنَّ هذا هو العذابُ الَّذي كنتم تشكّون فيه ولا توقِنونَ بوقوعه، وقد لقيتُموه فذوقوه[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مري).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (مرى).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 236، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 151، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 295.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 59/ 21 - 63، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تفسير المنتخب، ص: 737.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ عن سابقه:

فُصِل قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾؛ لأنَّه مقولٌ لقولٍ محذوفٍ دلَّ عليه السِّياق؛ أي: يُقالُ لملائكةِ العذاب: خُذوه، والضَّمير المفرد عائدٌ إلى الأثيم باعتبار آحادِ جنسِه[1].

زيادةُ بيانٍ لِما يلقاهُ الأثيم مِن ذِلَّةٍ وهوانٍ

الغرض مِن الأمر ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾، وتعيينُ المأمور:

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ على حقيقته؛ فهو صادرٌ مِن الله ﷻ، والغرضُ مِن الأمر هنا التَّحقيرُ مِن شأنِ أهلِ الكفر والفسوق والعصيان، والمعنى: أنَّه يُقال لزبانية جهنَّم - وهم المأمورون -: جُرّوا هذا الأثيمَ وسوقوه، والعَتْلُ: أن يُؤْخَذ بتلابيب الرَّجُل فيُعْتل؛ أي: يُجَرُّ ليُذهَبَ به إلى حبسٍ أو بَلِيَّة[2]، فهذا "تنكيلٌ بهذا الأثيم، ومضاعفةٌ لِما يلقى مِن ذِلَّةٍ وهَوانٍ في هذا اليوم؛ حيث يُساق إلى جهنَّم بين زبانيتها سَوقًا عنيفًا، ثمَّ يُعتلُ عَتلًا، ثمَّ لا يُلقى به حيث يقع، بل يُدفع به دفعًا حتى يبلغ سواء الجحيم؛ أي: وسطَها، ومركزَ دائرَتِها؛ وبهذا يتلقَّى مِن العذاب أقساه وأشدَّه"[3].

تحقيرُ المخالفينَ للشَّرعِ المنزَّل؛ كفّارًا وفُسّاقًا وعُصاةً

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾:

الفاء في ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ عاطفة[4]؛ حيث عطفت فعلَ الأمر (اعْتِلوهُ) على الذي قبله، وهو قوله سبحانه: ﴿خُذُوهُ﴾، ودلالة الفاء: التَّرتيب والتَّعقيب، والمعنى: أنَّه بعد أنْ يُؤْمرَ الزَّبانيةُ بأخذِ الأثيم يُؤْمَرون بجرِّه بقهرٍ وغِلظةٍ وعُنفٍ وسُرعةٍ إلى العذاب والإهانة[5]، فيُساق سوقًا ويُدَعُّ دعًّا؛ لأنَّه يُزَجُّ به إلى ما يُكره، فقد ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ

بيانُ أصنافِ الهوانِ وطُرُقِ التَّعذيب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 315.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 150، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 211.
(4) أحمد عبيد الدَّعاس، إعراب القرآن الكريم: 3/ 212.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 45/ 18، والخطيب الشِّربيني، السِّراج المنير: 3/ 589.

لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النّازعات: 36] وعُرِضت جهنَّمُ ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الكهف: 100].

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

العتلُ هو الجذبُ الشَّديدُ المصحوبُ بالقهر للمُتكبِّر العنيد

العين والتّاء واللّام تدلُّ اشتقاقاتُها على شدَّةٍ وقوَّة في الشَّيء، ومن ذلك الرَّجُل العُتُلُّ؛ وهو الشَّديد القويُّ المصَحَّحُ الجسم، واشتقاقُه من العَتَلَة التي يُحفَر بها، والعَتَلَة أيضًا: الهراوَة الغليظة من الخشب، والجمعُ: عَتَلٌ، ومن الباب: العَتَلُ؛ وهو أنْ تأخذ بتَلْبيب الرَّجُل فتَعْتِلُه؛ أي: تجرَّه إليك، بقوَّة وشدَّة، ولا يكون عتلًا إلّا بجفاءٍ وشدَّةٍ[1].

والمعنى المحوريُّ لِلعَتْل: قَلْعُ الغليظ الثَّقيل أو نقلُه؛ وهو الأخذُ بمَجامعِ الشَّيء وجرُّه بقهر[2]، والمعنى المراد في الآية الكريمة: قَوْدُ الأثيم بالعُنف، وجرُّهُ بقهرٍ، والذَّهابُ به إلى المكروه[3].

وهذه الكلمة تشير إلى أنَّ الكافر يحاولُ الفِكاكَ من القيد وهو يُساق إلى النّار، ولكنْ أنَّى الفِكاكُ من قبضةِ الزَّبانيةِ الغِلاظِ الشِّداد؟!

وصيغةُ الأمر فيها تدلُّ على التَّحقير من شأن المعتول، وعلى أنَّ المُلكَ والأمرَ كلَّه لله تعالى يومَ القيامة، فلا آمِرَ إلّا هو، ولا قضاءَ إلّا قضاؤه سبحانه وبحمده.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتُها في ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾:

الحميم وعِظَمُ الجحيمِ نهايةُ كلِّ أفّاكٍ أثيم

الأصل في معنى ﴿إِلَىٰ﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على انتهاء الغاية، زمانيَّةً كانت أو مكانيَّة[4].

وهي هنا دالَّةٌ على أنَّه بَعْدَ الأخذ وما يلحق به من قهر ومذلَّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عتل).
(2) الراغب، المفردات، ومحمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عتل).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 132.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزمخشري، المفصل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 463، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 16.

ينتهي الأمرُ بالأثيم إلى أعظمِ ما يَلْقى الكافرُ مِن عذابٍ في نار جهنَّم.

وفي هذا تنبيهٌ إلى أنَّ العذابَ في الآخرة مراحلُ يمرُّ بها الكافر مرحلةً تلو أخرى، كلَّما انتهى مِن مرحلة؛ انتقل إلى التي بعدَها حتَّى ينتهيَ به الأمرُ في عذاب الجحيم، نسأل اللّهَ السَّلامة.

نوعُ الإضافة ودلالتُها في ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾:

تصوير شدَّة عذابِ مَن كفرَ بالله تعالى

الإضافة في قوله تعالى: ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ معنويَّة، والغرضُ مِن هذه الإضافة - مع تعريف المضاف - تهويلُه؛ حيث إنَّ المقصود بـ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ "وسطُها ومعظمُها الذي تستوي المسافة إليه مِن جميع جوانبه"[1]، فهو الموضعُ الذي تكون فيه النّار في غاية الاضطرام والتَّوقُّد، وهي موضعُ خروج الشَّجرة التي هي طعامُ الأثيم الكَفور، وقد أفْهَمَ هذا أنَّه صار في موضع يُحيطُ به العذابُ مِن جميع الجوانب[2]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: 17].

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾:

بيانُ عظَمَةِ النّارِ؛ إنذارًا وتحذيرًا

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ للعهد؛ أي: الجحيم الموصوف المذكور في القرآن، والمذكورُ كذلك في آخر السّورة الكريمة، والجحيم: اسمٌ عَلَمٌ مِن أسماء النّار، وكلُّ نار عظيمة في مهواةٍ تسمَّى جحيمًا[3].

دلالة التَّعبير بحرف المُهلة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾:

إفادةُ التَّدرُّج في العذاب

جاء التَّعبير بحرف المُهلة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾ للدَّلالة على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ صَبَّ الحميمِ على رأسِه

(1) البروسوي، روح البيان: 8/ 427.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 45.
(3) عبد الرّحمن الميداني، معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر: 56/ 13.

أشدُّ على الكافرِ الأثيم مِن أخذِه وعَتله[1]؛ حيث يَضْرِبُ مالكٌ خازنُ النّارِ ضربةً على رأسِ أبي جهل وإخوانه مِن الفجّار بمَقامعَ مِن حديد، فتَتَفَتَّتُ رؤوسُهُم عن أدمِغَتِهِم، فتَجْري أدمغَتُهُم على أجسادهم[2].

الغرض من الأمر ﴿صُبُّواْ﴾:

الحثُّ على التَّعذيب؛ مبالغةً في الزَّجر والتَّرهيب

الأمْرُ في قولِه تعالى: ﴿صُبُّواْ﴾ على حقيقَتِه في الوجوب، فهو صادرٌ مِن الله ﷻ، والغرضُ مِن الأمر هنا الحثُّ على إذاقة هؤلاء المكذِّبين المعاندين أهلِ الكفر والفسوق والعصيان ألوانًا مِن العذاب جزاءَ استخفافهم بأوامر الله سبحانه، والاستهانةِ بشرعه، والتَّجاوزِ في حقِّ رسولِه ﷺ، وفي الأمر - كذلك - إهانةٌ بالغةٌ لهذا الكافر الذي كان مُستعليًا في الدُّنيا بكُفرِه.

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾:

المبالغةُ في ترويع المعذَّبين وإخافتِهم

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ تخييليَّة؛ حيث شُبِّه العذابُ أوَّلًا بالمائع، ثمَّ خيّلَ له بالصَّبِّ[3]؛ ذلك أنَّ حقيقة الصَّبِّ هي إفراغُ الشَّيء المظروفِ مِن الظَّرف، وفِعلُ الصَّبِّ لا يتعدَّى إلى العذاب؛ لأنَّ العذابَ أمرٌ معنويٌّ لا يُصَبُّ، فمِن هنا كانت استعارةً[4].

وهذه الاستعارةُ أكمَلُ في المبالغة كأنَّه يقول: صُبّوا عليه عذابَ ذلك الحميم، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [البقرة: 250][5].

نكتة التَّعبير بالفوقيَّة وإضافتِها إلى رأس المعذَّب في ﴿فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ﴾:

الفوقيَّة دالَّةٌ على إحاطةِ العذاب والتَّنكيل

التَّعبير بالفوقيَّة يدلُّ على العلوِّ والبُعد والإحاطة، ولمّا كان الصَّبُّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 151.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 281 - 282، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 132، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 135.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 281، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 664، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 408.

في الآية متعلِّقًا بالعذاب لا بالحميم نفسه كان البُعد والعُلوُّ المفهوم مِن الفوقيَّة فيه زيادةُ عذابٍ وتهويل، والمراد: جعلُ المصبوب محيطًا بجميع جسده[1].

وفي التَّعبير بالفوقيَّة زيادةٌ في الإهانة للكَفور الأثيم الذي كان مُستعليًا على الإيمان بكُفره، ومُستعليًا على اتِّباع النَّبيِّ ﷺ بتكبُّره، فعوقِبَ عقابًا مِن جنس عمله، فكان في دركٍ مِن النّار بحيث يكون سافلًا يعلوهُ العذابُ والمعذِّبون!

أمّا دلالة التَّعبير بالرَّأس فهي تأكيدُ الإهانة؛ ذلك أنَّ الرَّأسَ موضعُ العزَّة والأَنَفَة والتَّعالي والتَّكريم، حتَّى إنَّه ليقال لسيِّد القوم: رأسُهم، ويُقال في موضع الفخر والعزَّة: هو مرفوعُ الرَّأس، كما يُقال في ضدِّه: ناكِسو رؤوسِهم، ويقال: هُمُ الهاماتُ والذُّرَى، ويُقال: إنَّه لَيُطاول برأسه السَّماءَ، إلى آخر ذلك، ممّا يدلُّ على مكانةِ الرَّأسِ لدى القوم، فلمّا يؤمَر الزَّبانية بصَبِّ العذاب فوق رأس الذي ادَّعى الكرمَ والعزَّة؛ فهذا هو الهَوان[2].

معنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها في ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾:

بيانُ شدَّة العذاب ابتداءً وانتهاءً

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية؛ زمانيَّةً كانت أو مكانيَّة[3]، و﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ تبعيضيَّة؛ والمعنى: صُبّوا فوق رأسِه بعضَ هذا النَّوع[4]، ومآلهُ إلى الابتداء، فكأنَّ ابتداءَ الصَّبِّ هو عذابُ الحميم، فكيف بأوسَطِه ونهايته؟!

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 589، وعبد الرحمن الميداني، معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر: 57/ 13.

(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 669.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

(4) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 103، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 563، والقنَّوجي، فتح البيان: 12/ 409.

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها في ﴿عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾:

بيانُ نوعِ العذابِ لِمَن كان منه في ارتيابٍ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ معنويَّة، والغرض منها البيان؛ أي: عذابٍ هو الحميم[1].

وكان الأصل: يصبُّ من فوق رؤوسهم الحميم، فقيل: يُصَبُّ مِن فوق رؤوسهم عذابٌ هو الحميم؛ للمبالغة، ثمَّ أُضِيفَ العذابُ إلى الحميم للتَّخفيف[2]، أو على تقدير حرف (مِن)، ويكون المعنى: مِن عذابٍ مِن الحميم[3].

معنى التَّعريف في ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾:

اجتماعُ حَرِّ الظّاهر والباطنِ في تعذيبِ أهلِ الكُفْرِ

التَّعريف في ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ للعهد؛ أي: العذاب الذي يغلي به الحميمُ أو الذي هو الحميمُ نفسُه، والتَّعبيرُ عنه بالعذاب أشدُّ في التَّهويلِ، وهذا في مقابلةِ ما كانَ لهم مِن البركة بما ينزل مِن السَّماء مِن المطر؛ ليجتمعَ لهُم حرُّ الظّاهر بالحميم، والباطن بالزَّقوم[4].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿ذُقۡ﴾ عن سابقه:

فُصِلَ قولهُ تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ عن سابقه؛ لأنَّها مقولُ قولٍ آخَرَ محذوفٍ، تقديره: قولوا له، أو: يُقال له[5]. وفيه تضمين زيادةٍ في البيان بحالِ مَن حقَّ عليه الهوان.

الغرض من الأمر ﴿ذُقۡ﴾، وتعيين الآمِر:

التَّحقيرُ والاستخفاف بمَن تناولَ الآياتِ بالاستهزاءِ والإجحاف

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿ذُقۡ﴾ جاء لغرض التَّحقير مِن شأنِ أهلِ الكفر والفسوق والعصيان، والمعنى: أنَّه يقال يوم القيامة للمجرم العنيد: ذُق لأنَّك وبأنَّك أنتَ العزيز الكريم! فهو على معنى الاستخفاف والتَّوبيخ

(1) القنَّوجي، فتح البيان: 12/ 409.
(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 103، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، ومحمد ثناء الله المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 8/ 376.
(3) عبد الرحمن الميداني، معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر: 57/ 13.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 45، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 589.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 135، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 134.

والاستهزاء والإهانة والتَّنقيص؛ فكأنَّه قيل له: إنَّك أنتَ الذَّليل المُهان؛ ولذا قيل بعدها: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تقول لهم الملائكة: إنَّ هذا ما كنتم تشكّون فيه في الدُّنيا[1].

والآمِر بالذَّواق هم زبانية النّار، فإنَّهم يقولون للكَفور الأثيم: ﴿ذُقْ﴾؛ أي: العذابَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ هذا توبيخٌ له بذلك[2].

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ذُقْ﴾:

اجتماعُ العذابِ الحِسِّيِّ والمعنويِّ للأثيمِ

الذَّوقُ مستعارٌ للإحساس[3]؛ إذ إنَّ أصلَه: إدراكُ الطُّعوم، فاستُعِير هاهنا لإدراك

العذاب، وذلك قصدًا إلى التَّهكُّم؛ حيث نُزِّل التَّضادُّ منزلة التَّناسبِ بواسطة التَّهكُّم[4].

علَّة فَصْلِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ عن سابقه:

بيانُ عاقبةِ مَن تجرَّأ على الله تعالى وشرعِهِ

فُصِل قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ عن سابقه لأنَّه جاء تعليلًا له؛ فالمعنى: ذُقْ لأنَّك كنت - في زعمك وبين قومك - العزيزَ الكريم[5]؛ فإنَّ أبا جهلٍ كان يزعم أنَّه أعزُّ أهل الوادي وأكرمُهم، فيقولون له: ذُقِ العذابَ أيُّها المتعزِّزُ المتكرِّمُ على زعمك، وفيما كنتَ تقوله في الدُّنيا[6].

بلاغة الاستعارة في وصفِ المعذَّب بالعزَّة والكرَم:

البشارةُ في موضعِ النِّذارة، والوعدُ في مكانِ الوعيد استهانةً وتهكُّمٌ بالكافر العنيد

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ خبرٌ مستعمَلٌ في التَّهكُّم بعلاقة الضِّدِّيَّة، والمقصودُ عكسُ مدلولِه؛ أي: أنتَ الذَّليل المُهان،

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 120، والماوردي، النكت والعيون: 5/ 256، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 151.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 94.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 132، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 402.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 151، والقشيري، لطائف الإشارات: 3/ 386.

(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 77/ 5، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 408، والقنَّوجي، فتح البيان: 12/ 410.

والتَّأكيدُ للمعنى التَّهكُّميِّ[1]، وهذا الأسلوبُ أغيَظ للمستهزَأ به وأشدُّ إيلامًا له[2]؛ حيث يحصلُ له مع العذاب الحسِّيِّ العذابُ العقليُّ[3]، والمعنى: ذُقْ إنَّكَ أنتَ العزيزُ في قومكَ الكريمُ عليهم، فما أغنى ذلك عنكَ، ولم يُفِدْكَ شيئًا[4]!

فالحاصلُ أنَّ في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ استعارةً تهكُّميَّة؛ حيث نُزِّلت حقارتُهم منزلةَ العِزِّ بواسطة التَّهكُّم، والدّاعي إليه زعمُه كذلك؛ لأنَّه في وقت القول - أي: ساعةَ يُقال له ذلك - يكونُ في غايةِ الذُّلِّ والمَهانة، وفي اعتبار ما كان في الدُّنيا أيضًا؛ لأنَّ عزَّهُ ليس بعِزٍّ حقيقةً[5].

دلالة توالي المؤكِّدات في: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾:

توالت المؤكِّداتُ في قولهِ تَعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ وهي: النّاسخ (إنَّ)، وهذا توكيدُ إسنادٍ، ثمَّ ضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾، ثمَّ تعريف المسند إليه بالألف واللّام.

ردُّ الإنكار، وزيادةُ التَّهكُّم من ذوي الاستكبارِ

وهذه المؤكِّداتُ جاءت لغرَضِ توكيد التَّهكُّم؛ ذلك أنَّ تأكيدَ كونِهِ العزيزَ الكريمَ وهو في مَعْمَعان الإهانة والذُّلِّ؛ ليس فيه إهانة فحسب، وإنَّما فيه لفتٌ إلى الوَهْمِ الخادعِ الذي كان يعيشهُ في النّاس حين توهَّم أنَّه فيهم عزيزٌ كريم[6]!

بلاغة القصر بتعريف الجزأين في: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾:

جاء القصر بتعريف طرفَي الإسناد في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ لإفادةِ التَّوكيد والحصر؛ فكأنَّها تخصُّ المخاطَب بهذا اللَّون مِن العذاب.

مَن زادَ استعلاؤه، وعَظُم داؤه؛ زادَ يومَ القيامة عذابُه، واشتدَّ في النّار بلاؤه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 135.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 423.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 132.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 402.
(6) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 670 - 671.

وعلى ما ذُكِرَ في أسباب النُّزول مِن أنَّ هذه الآيات نزلت في أبي جهل؛ فإنَّ الحصرَ فيها ظاهر؛ لكونهِ رأسَ الكفر والضَّلال، بل هو فرعونُ هذه الأمَّة! فناسبَ أن يقال له ولأمثالهِ وهو يُعذَّبُ بالحميم في الجحيم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[1].

معنى التَّعريف والمبالغةِ في ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾:

ادَّعى الأثيمُ العزَّةَ والكرمَ، فعوقبَ بجحيمٍ يتلظَّى ويضطرم

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ للعهدِ؛ حيث إنَّ المراد الإشارة إلى ما قاله أبو جهل لرسول الله ﷺ بحسب ما وردَ في أسباب النُّزول: "أيتهدَّدُني محمَّد وما بين جبليها أعزُّ مني ولا أكرَم"[2]، فكأنَّه قيل له: هذهِ عزَّتكُ التي زعمتَ، وكرمكَ الذي ادَّعَيتَ، ولا عزَّةَ فيهما ولا كرَم!.

وأمّا المبالغة فيهما فليست على بابها في إفادةِ معنى التَّعظيم ونحوِه، بل هي مبالغةٌ في السُّخرية والإهانة والتَّحقير؛ بقرينة وُرودِها في سياق التَّهكُّم[3].

نكتة تقديم صفةِ العزَّة على صفةِ الكرم:

قُدِّمت العزَّةُ لكسرِ أنفِ صاحبِها وإرغامه، بعدما لقيَ مغبَّة آثامِهِ

قُدِّمت صفةُ العزَّة على صفة الكرم في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾؛ لوجوه، منها: أنَّهُ مشاكلةٌ لِقول الكافر اللَّئيم أبي جهل؛ فقد وردَ في أسباب النُّزول أنَّه قال لرسول الله ﷺ: "لقد علمتَ أنَّي أمنعُ أهلِ بطحاء، وأنا العزيز الكريم"[4]، ولأنَّ سياقَ الإهانة بإيصالِ العذاب وصَبِّه فوقَ الرَّأس، والأمرَ بذوقهِ وتجرُّعِه؛ يَحسُنُ معه الابتداءُ بذِكرِ صفةِ العزَّة التي هي المَنَعَة، فكأنَّه قيل له: أينَ عزَّتك التي زعمتَ أنَّها تمنعُ وصولَ العذاب إليك؟

ومن نُكَتِ تقديمِ صفةِ العزَّةِ: أنَّ ذلكَ مناسبٌ لِما قبلها مِن الآيات

(1) حسن، تفسير القرآن: 58/ 13.
(2) الواحدي، أسباب النُّزول، ص: 377.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 408.
(4) الواحدي، أسباب النُّزول، ص: 377.

التي بدأتْ بِنَفْيِ نفع الوليِّ لوليِّه وعدمِ نصرِه، ثمَّ ثنَّت بذِكر العذاب المهين مِن صَبِّ الحميم وأكلِ الزَّقّوم، فجاء التَّوبيخ مشاكلًا له، فبُدِئَ بالتَّذكير بالعزَّة المفقودة والنّاصرين العاجِزين المتبرِّئين، ثمَّ بالتَّذكير بنفي الكرامة، ولأنَّ تأخير صفةِ الكرم - مع ما فيهِ مِن بليغ السُّخرية والتَّهكُّم - يُحقِّق محسِّنًا بديعيًّا لفظيًّا يتمثَّل في مُراعاة الفواصلِ.

علَّة فصلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ عن سابقه:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ لأنَّها بقيَّةُ القول المحذوف؛ أي: ويُقال للآثمينَ جميعًا[1]: هذه الآخرةُ وهذه جهنَّمُ التي كنتم تشُكّون فيها[2]! والمرادُ منه ما ذكرَهُ سبحانه في أوَّلِ السّورةِ حيث قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: 9][3].

الفَصْلُ لِبَيان ما يترتَّب على الامتراءِ مِن الكرب والشَّقاء

نكتة توكيد جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾:

جاء التَّوكيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ - التي تقوم مقامَ تَكرار الجملة مرَّتين مع الاختصارِ والإيجاز - ردًّا لتَكْذيبِهم؛ ليَسوقَ لهُم على وجهٍ مُفْهِمٍ أنَّه علَّةُ ما ذُكِر مِن عذابهم[4].

التَّوكيد لردِّ الإنكار، والتَّذكيرِ بعلَّة دخولهم النّار

نكتة التَّعبير باسم الإشارة للقريب ﴿هَٰذَا﴾ وتعيينِ المُشار إليه:

اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ مشارٌ به إلى الحالِ الحاضرة لديهم[5]، وفائدتُهُ تمييزُ المُشار إليه أكمَلَ تمييزٍ مُجابَهةً لإنكارِهم الذي أصرّوا عليه في الدُّنيا؛ أي: هذا العذاب والجزاء الذي تذوقونه الآن في الجحيم هو ما كنتُم به في رحلةِ امتحانكم في الحياة الدُّنيا تُجادلون مكذِّبين به، متوهِّمين أنَّكم بجدالكم تغيِّرون من الواقع الحقِّ شيئًا[6].

الإشارة للتَّنبيه إلى الحالِ الحاضرة لديهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 77/ 5.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 664.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 47/ 18.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316.
(6) عبد الرحمن الميداني، معارج التفكُّر ودقائق التَّدبر: 58/ 13.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها في ﴿هَـٰذَا مَا كُنتُم﴾:

شكَّ الكافرون في الحقِّ رغم جلائه، ولم يقدِّسوا الله في عليائه

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ موصولة[1]، والمعنى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾؛ أي: العذابَ هو ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي: الذي كنتم تشُكّون في وقوعه، يومَ كنتُم في الدُّنيا، فذوقوه اليوم، والجمعُ في الآية باعتبار المعنى؛ لأنَّ المراد جنسُ الأثيم[2].

دلالة التَّعبير بالكون الماضي في ﴿كُنتُم بِهِۦ﴾:

بيانُ أنَّ الامتراء كان لهم جِبلَّةً وطبعًا

جيءَ بفعل الكَوْنِ ماضيًا في ﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى الاستمرار على الامتراء في زمن المُضِيِّ، وللإخبار بأنَّ الامتراءَ كان جِبلَّةً وطبعًا لهم[3]، فلا جرم استحقّوا أشدَّ العذاب بما كانوا يمترون، وما ظلمَهُم الله تعالى ولكن كانوا أنفسَهُم يظلمون!

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِهِۦ﴾:

ألصقَ الكافرون بالوحي امْتِراءَهم، وأكثروا على الله تعالى اجتراءَهم

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق[4]، وهي في هذا السِّياق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ تفيدُ الإلصاقَ المجازيَّ، فكأنَّهم جعلوا امتراءَهم ملتصقًا بالحقائق التي يُخْبِرهم عنها القرآنُ والنَّبيُّ العدنان ﷺ، فكلَّما جاءَهم بالحقِّ من ربِّهم رمَوْهُ بفِريةٍ وكذبة، وأعرَضوا عنه مبالغةً منهُم في إنكاره، فكان عاقبةُ الذين أساؤوا السّوأى.

نكتة تقديم شبهِ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على خبر النّاسخ ﴿تَمْتَرُونَ﴾:

يومَ القيامة يوافَى الكافرون بما كانوا فيه يمترون

قُدِّمَت شبهُ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على خبر النّاسخ ﴿تَمْتَرُونَ﴾ لإفادة الاختصاص، فقد تقدَّم في السّورة الكريمة ما يؤكِّد تكذيبَهم بالبعث والجزاء، وذلك في قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 135، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 135.
(2) الدرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 688.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 47/ 18، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

﴿٩﴾ [الدُّخان: 9]، وقوله سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤﴾ [الدُّخان: 13 - 14]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ٣٤ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٦﴾ [الدُّخان: 34 - 36]، فقد كان امتراءُ القوم وشكُّهم في البعث والجزاء؛ فلذلك قُدِّم ما يعودُ عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾.

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ ﴿تَمۡتَرُونَ﴾، ودلالة مجيئهِ مضارعًا:

أصرَّ الكافرون على التَّكذيب بلقاءِ ربِّهم، واستمرّوا عليه مدَّةَ بقائهم

جاء التَّعبير بالمسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ لتقويةِ الحكم وتقريره وتوكيده.

والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليِّ تقويةَ الحُكم هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعلَ فيه قد أُسنِد مرَّتين: مرَّةً إلى ما أصلُهُ مبتدأ - وهو هنا اسمُ النّاسخ ﴿كُنتُم﴾ - ومرَّةً إلى ضميره - وهو واو الجماعة في ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ - ؛ فهو بمثابة التَّعبير بجملةٍ فعليَّةٍ مكرَّرةٍ، فيَقْوى الحكمُ ويَثْبُت في الذِّهن[1].

وتجري هذه الصِّياغة في المقامات التي تدعو إلى التَّوكيد والتَّقرير، مثل مواجهة الشَّكِّ في نفس المخاطَب، وردِّ الدَّعوى التي يدَّعيها، وغير ذلك مِن مقامات التَّقوية والتَّقرير، وهي كثيرةٌ لا تُحْصى[2]، ومنها ما ورد في هذه الآية.

أمّا المضارع؛ فلإفادة الاستمرار في زمن الماضي بقرينَةِ ﴿كُنتُم﴾، وتكرُّر وقوعِ الشَّكِّ والتَّكذيب، وصدوره منهم مرَّةً بعد مرَّة؛ ففيه معالجةُ هذا الأمر، وإصرارٌ عليه[3].

(1) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغي، ص: 125.

(2) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 220.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 45/ 18، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590، والواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 122.

بلاغة الالتفات من خطاب المفرد إلى خطاب الجمع:

الالتفاتُ لإرادة جنس الأثيم، والتَّحذيرُ مِن شدَّة العذاب الأليم

التُفِتَ مِن خطاب المفرد في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ إلى خطاب الجمع في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ لاعتبار المعنى؛ لأنَّ المراد جنس الأثيم[1].

ثمَّ إنَّ فيه - مع تنبيه القارئ - تحذيرًا للجمع المكذِّب بآيات الله تعالى، فإذا سبقَ الكلام عن المفرد ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ وتفرُّدِه بعذابٍ شديدٍ هو لهُ أهلٌ؛ فإنَّ الجميعَ سيواجهونَ المصيرَ نفسَه إن لم يؤمنوا، وكأنَّ كلَّ واحدٍ مِنهم قد أُعِدَّت له صورةٌ مِن العذاب مفردة كالتي سبقت[2].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الأخذ والتَّناول:

الأخذُ أعمُّ من التَّناول

الفرقُ بينهما أنَّ الأخذَ يتضمَّن معنى الغِلظةِ والقبضِ بقوَّة[3]؛ فأوثِر في هذه الآية لأنَّه والعَتلَ يتضمَّنان معنى القوَّة والغلظة والعنف والشِّدَّة، فناسبَ ذِكرُ (الأخذ) سياقَ العذاب، ولفظَ (العَتل)؛ فالعَتلُ: هو الجَرُّ والسَّوقُ والقَوْدُ بعنف[4]؛ وهو أن تأخذَ بتلابيب الرَّجل فتَعتِلَه؛ أي: تجرَّهُ إليك لتذهبَ به إلى حَبْسٍ أو عذاب[5]، فقال الله ﷻ: ﴿خُذُوهُ﴾؛ أي: أخْذَ قهرٍ، ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾؛ أي: جُرّوه بقَهرٍ وغلظَةٍ وعُنفٍ وسرعةٍ إلى العذاب والإهانة[6].

أمّا التَّناوُل؛ فإنَّه يكون لِما تحبُّه النَّفْس؛ فيكونُ تناولُه بغير غِلظةٍ ولا عنف، يقال: ناولتُه الشَّيءَ فتناولَه، ونالَني بالخير نَوالًا،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 132، والقنَّوجي، فتح البيان: 12/ 410.

(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 674.

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (أخذ).

(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 59، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 150، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.

(5) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 119، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 150، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.

(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 45.

وأنالَني بخيرٍ إنالةً، والتَّنوُّل لا يكون إلّا في الخير، ويُقال: إنَّه ليَتَنوَّل بالخير، وأنالَه معروفَه ونوَّله، أي: أعطاه معروفَه[1]، فالمُعطَى في هذه الاستعمالات تُحبُّه النَّفْس؛ لهذا تتناولهُ بغير غِلظةٍ ولا عُنف.

والتَّناول: أخْذُ الشَّيء للنَّفس خاصَّةً؛ فلا يُقال تناولتُ الشَّيءَ لِزَيدٍ كما يُقال: أخذته لِزَيدٍ؛ فالأخذُ أعمُّ من التَّناول[2]، والملائكةُ يأخذون هذا الأثيمَ لأمر الله ﷻ؛ فلهذا أيضًا أوثرَ لفظُ (الأخذ) دون (التَّناول) في هذه الآية.

الصَّبُّ والسَّكْب:

الفرقُ بينهما أنَّ المعنى المحوريَّ لجذر السَّكْب: جريانُ المائع أو الرِّخو بيُسرٍ وانضباطٍ إلى مقرِّه[3]، والماء المسكوب: هو الذي يجري على وجهِ الأرض من غير حفر[4].

في الصَّبِّ حَدْرُ المائعِ من أعلى إلى أسفل بقوَّةٍ أو دَفع، وبعد السَّكبِ انسكابٌ فيه جريانُ المائعِ بيُسرٍ وانضباطٍ إلى مَقرِّه

وأمّا المعنى المحوريُّ لجذر الصَّبِّ؛ فهو حَدرُ المائع من أعلى إلى أسفل بقوَّةٍ أو دَفع[5]؛ ولذا أوثِرَ في هذه الآية لفظُ الصَّبِّ دون السَّكبِ لِما في الصَّبِّ من قوَّةٍ ودَفعٍ يُناسبان هذا العذاب، ولأنَّ الصَّبَّ هو إراقةُ الماءِ من أعلى إلى أسفل[6]؛ فذِكرُ لفظِه مناسبٌ لقوله ﷻ: ﴿فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾، ولذا أوثِر لفظُه أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: 19].

وبعد السَّكْب انسكابٌ فيه جريانُ الماء بيُسرٍ؛ لذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ [الواقعة: 31]؛ أي: جارٍ غيرُ منقطِع[7].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نول).
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 145.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سكب).
(4) الجوهري، الصحاح: (سكب).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (صبب).
(6) الراغب، المفردات: (صبب).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 209، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 223.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"